رحلات السندباد



الرحلة الثالثة

المارد واللؤلؤ

رحلات السندباد



الرحلة الثالثة

المارد واللؤلؤ

اعداد ورسوم

رفعت عفيفي

الدار النموذجية
للطباعة والنشر



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بولفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
07 230195 - 00961 7 230841
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

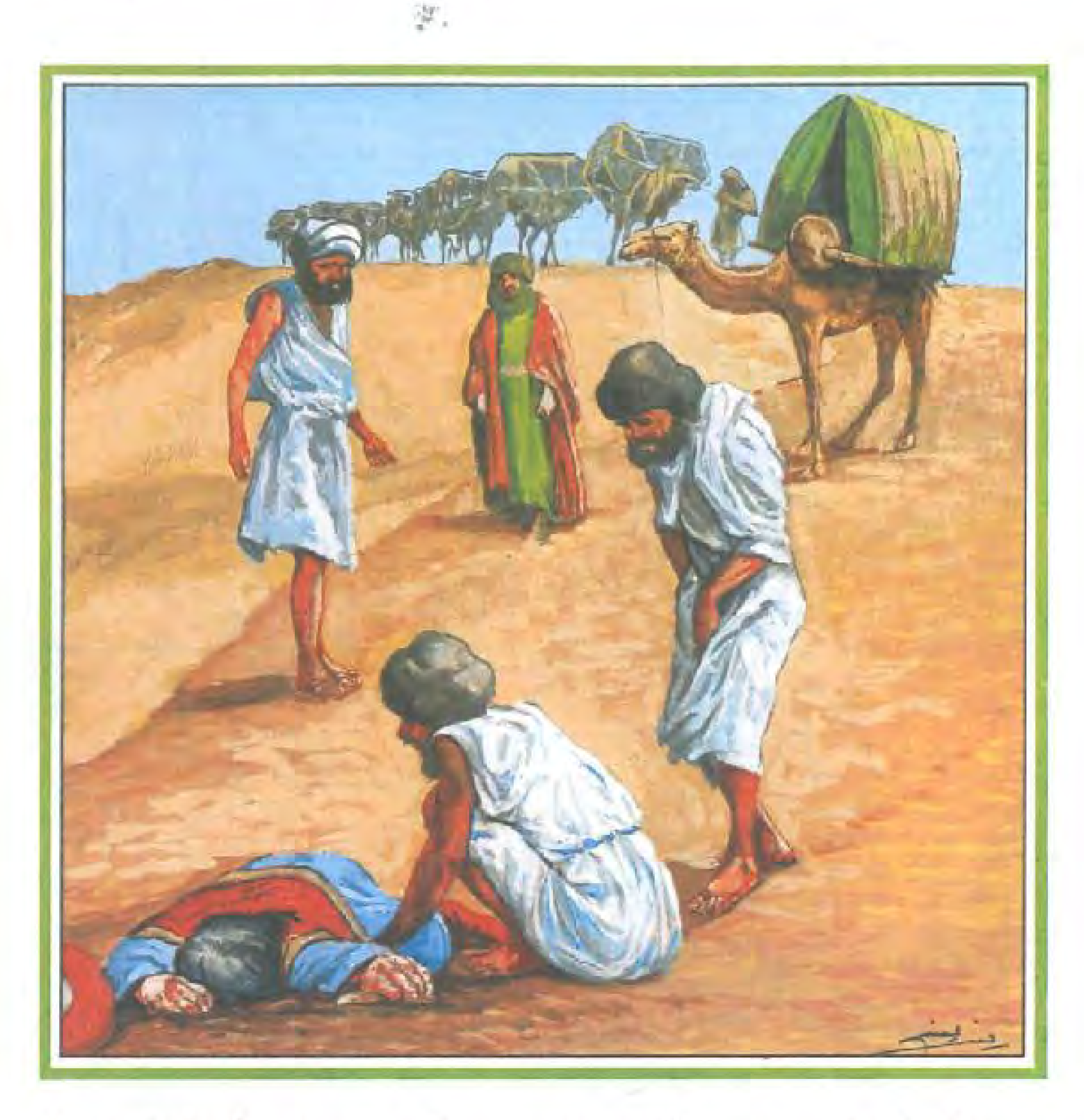
أنَا السنْدِبادُ البَحْرِيُّ صاحِبُ الرِّحْلاتِ الكَثِيرَةِ والمُغامراتِ المُثِيرَةِ، وَهٰذهِ هِيَ رِحْلَتِي الثَّالِثة.

ونبدأُ حكايتُها بعدَ عَوْدَتي مِنْ رحْلَتي الثَّانية. وكُنْتُ قدْ صادَفْتُ فِيها الكثيرَ مِنَ الأَهْوَال. ولٰكِنِّي في النِّهايَةِ عُدْتُ إلى مَدِينَتي بَغْداد ومَعِي الكَثيرُ منَ الأمْوالِ والأحْمَال. ووجدتُ تِجَارتي قَدِ انتعشَتْ في فَتْرةِ غِيابي بِفَضْلِ أَمَانَةِ عُمَّالي وإخْلاَصِهِمْ. فكافأْتُهُمْ على حُسْنِ صَنيعهم وظَلَلْتُ معهمْ أباشِرُ الأعمالَ وأَنْعُمُ بصُحْبَةِ الرِّفاقِ والأصْدِقَاء. وصَارَتْ حَياتي هَنيئَةً بما لديَّ منْ مَالٍ وما أتَمَتَّعُ به منْ حُبِّ النَّاس. لٰكِنِّي في كَثيرٍ مِنَ الأحْيانِ كانَتْ تَنْتَابُني حالَةٌ مِنَ المَلَلِ والكآبَةِ لا أدْرِي لها سَبَباً. ولهٰذا نصَحَني أصدِقَائي بأنْ أتزوَّجَ حتَّى يَتَغَيَّرَ حَالي.

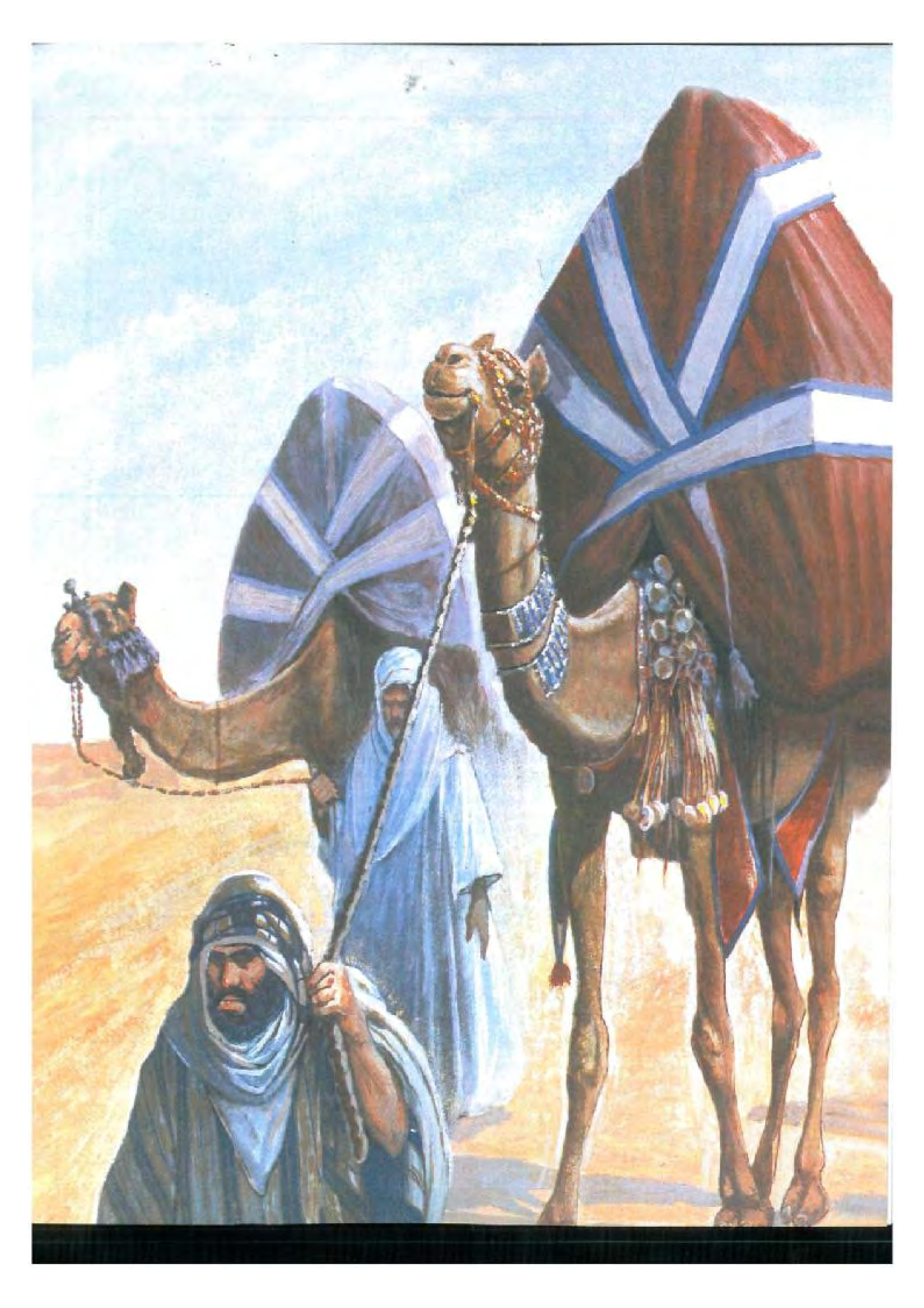
وقد وجدْتُ في نصيحَتِهِمْ شيئاً كنتُ قَدْ نَسِيتُهُ وأغْفَلْتُ أمْرَهُ مِنْ حَياتي. وقدْ آنَ الأوانُ لِذٰلِك.

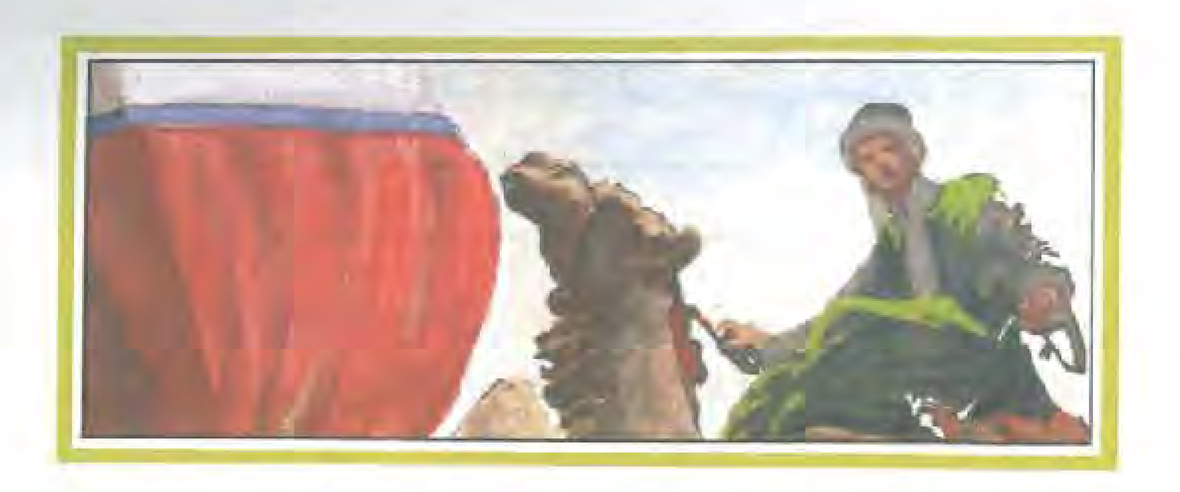
وكانَ لأحدِ التُّجَّارِ منْ أصدقاءِ وَالدي ابْنَةٌ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عنْ جَمالِها وكَمَالِها وحُسْنِ تَرْبِيَتِها. فأرسَلْتُ إليهِ خاطباً لها وطالباً تَحْقِيقَ رغْبَتِي في زوَاجِها. ووافَقَ الرَّجُلُ وأجابَني مُرَحِّباً. ومُحَدِّداً يومَ العُرْس.

وجاءَ ذلِكَ اليومُ وقدِ اسْتعَدَّ الجَميعُ لاستقبالِ العَروسِ وانتظرْنا مَقْدَمَها ونحنُ في سَعَادةٍ وبَهْجَة. وازدانَ القصرُ كُلُّهُ بالأنوارِ والأزْهارِ وامْتلأ بالأصْحَابِ والرِّفَاق. وحضَرَ القُضاةُ لِعَقدِ القِرَانِ، وجَميعُنا في شَوْقٍ ننتظرُ مَوْكِبَ العَروس. ومَضَى الوقْتُ على هذا الحَالِ حتَّى ذهبَ النهارُ وأقبَلَ الليلُ وطَالَ الانتظارُ، فأرسَلْتُ رُسُلاً إلى بَيْتِها حتَّى يَتَبَيَّنُوا سَبَبَ تأخيرِها. وعادَ الرُّسُلُ باكِينَ، ونائحينَ، ومُولولِينَ، وأخْبَرُوني بأنَّ العَرُوسَ ماتَتْ مُخْتَنِقَةً في مِغْطَسِ الحَمّام. وما أنْ سمعتُ النَّبأَ حتَّى آسْودَّتِ الدُّنْيَا في عَيْني وآنْقَلَبَ العُرْسُ إلى مَأْتَمٍ والفَرَحُ إلى حُزْنٍ وأخَذْتُ أُحَطِّمُ كُلَّ ما حَولي وأسرَعْتُ إلى خارِجِ القَصْرِ أرْكُضُ بينَ الدُّروبِ والحَاراتِ والطرقَاتِ حتَّى تركْتُ المدينةَ وصِرْتُ هائماً في الصَّحْراءِ لا أدْرِي كيفَ وصَلْتُ إليْها أو كَيْفَ الخُرُوجُ منها. وغَلَبَني الحزْنُ والتَّعَبُ فتهاوَيْتُ على الأرْضِ فاقدَ الوعْيِ وما شَعَرْتُ بَعْدَها إلاَّ وأنَا مُحاطٌ ببَعْضِ النَّاسِ تَحْتَ أشِعَّةِ الشَّمْسِ الحَارِقَة. وحينَ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ رأيتُهُمْ حَوْلي وسَمِعْتُهُمْ يحمَدُونَ اللّهَ على أنِّي لا زِلْتُ حيّاً. فَجَاؤُوا لِي بمَاءٍ وسَقوني ثُمَّ أطْعَمُوني لُقَيْماتٍ قَليلةً ثُمَّ غِبتُ عَنِ الوَعْيِ مرَّةً أُخرى ولَمْ أُفِقْ إلا وأنا داخِلَ هَوْدَجٍ فَوْقَ ظَهْرِ جَمَل. ونظرتُ منْه إلى ما حَوْلي فرأيتُ الصَّحراءَ ممتدةً مترامِيةَ الأطرافِ وأمَامِي وخَلْفِي قافِلَةٌ كبيرةٌ لا أدْرِي إلى أيْنَ تتَّجِهُ بِي. وكنتُ فِي حَالَةٍ مِنَ الإعْيَاءِ جَعَلَتْنِي لا أسْتَطِيعُ الحرَكَةَ منْ مكاني فظَلَلْتُ كما أنا فَوْقَ الجَمَلِ حتَّى احتجَبَتِ الشَّمْسُ وراءَ الأُفقِ، فوقفَ الرَّكْبُ وبَرَكَ الجَمَلُ وجاءَنِي رجُلٌ طيِّبٌ سألَني عنْ حَالي فأجَبْتُهُ أنِّي بخَيْرٍ وعَافِيَة فحَمِدَ اللّهَ على سَلاَمَتِي وأخبَرَني بأنَّهم وجَدُوني فِي الصَّحراءِ بَيْنَ الحياةِ والمَوْت. ولمْ يَكُنْ أمامَهُمْ سِوى أنْ يأخُذُوني مَعَهُمْ. فشَكَرْتُ الرجلَ على رعايتِهِ لي وعنايتِهِ بِي وسألْتُهُ عنْ وُجهَتِهِمْ، فأجَابَني بأنَّ القَافِلَةَ في طريقِها إلى البَصْرة. فقلتُ لَهُ: «إنني مِنْ تُجَّارِ بغداد. وليس لِي شأنٌ بمدينةِ البَصْرة». فقالَ الرَّجلُ: «لا تحمِلْ هَمّاً. فَمَتَى وَصَلْنا إلى البَصْرة فإنِي سأسَاعِدُكَ بالمالِ لتعودَ إلى بغداد معَ أيَّةِ قافِلَة»، وتذكَّرتُ أني أضعُ في منطقتي كِيساً منَ المَال فيه ألفُ



دينارٍ كنتُ أنْوِي تَوْزِيعَها على القُضَاةِ والشهودِ في عَقْدِ قِرَاني. فشكرتُ الرَّجلَ وأخبرتهُ بأنَّ مَعِي من المالِ ما يَكْفِي. فقالَ الرجلُ ليسَ عليكَ الآنَ إلاَّ أنْ تَسْتَرِيحَ. وجاءَ لِي بالطَّعامِ فأكلتُ حتَّى آكْتَفَيْتُ وحَمَدْتُ آللّه. ومَعَ إشْرَاقَةِ شَمْسِ اليَوْمِ التَّالِي تحرَّكَتِ القافِلَةُ وأنا مَعَها وكانَتْ صِحَّتِي قد تحسَّنَتْ عنْ ذِي قَبْل، فأخْرَجْتُ رأسِي منَ الهَوْدَجِ ورأيتُ الرجلَ يقودُ الجَمَلَ فأخْبَرْتُهُ بأنِّي في أحْسَنِ حالٍ وأستطيعُ السَّيْر. لكنَّ الرجلَ أصرَّ علَى أنْ أظَلَّ مَكَانِي فَوْقَ الجَمَل وأخْبَرَنِي أنَّنا على وَشْكِ الوُصُولِ إلى مَدِينَة





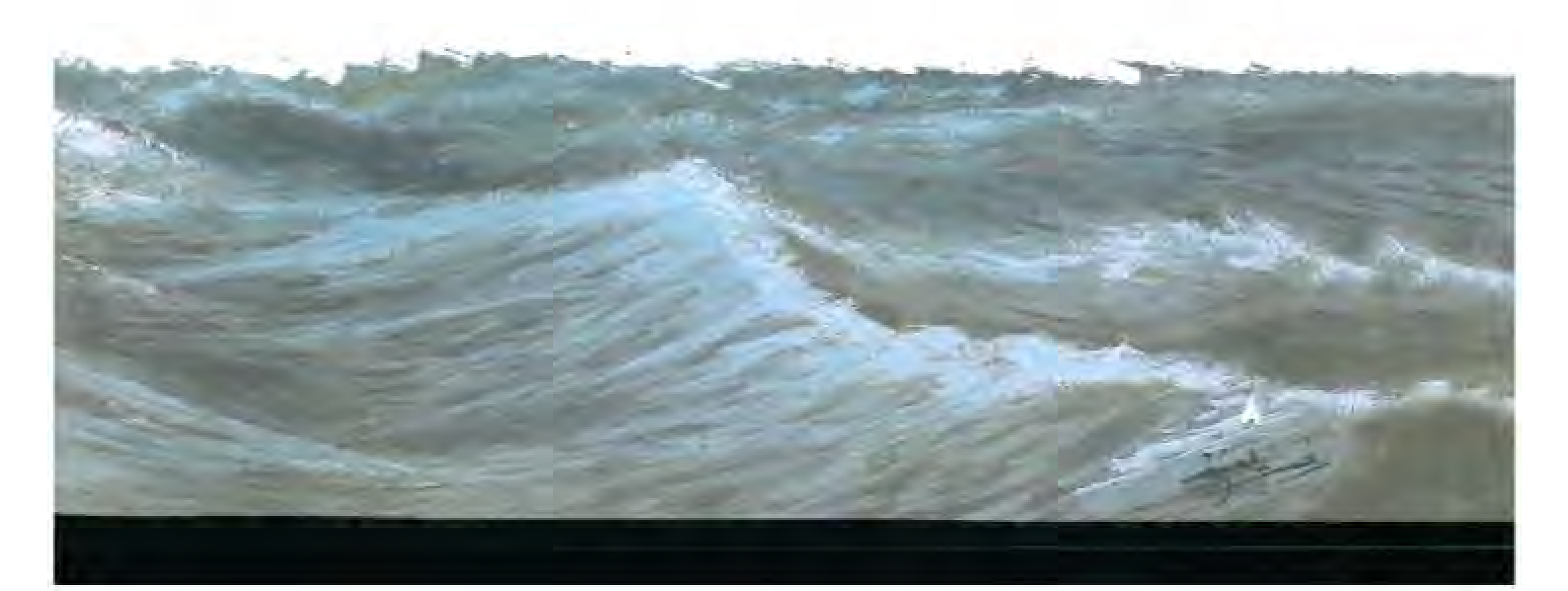
البصرة. وَلَمْ يَمْضِ وقتٌ طَوِيلٌ حتّى لاحتْ لنا المدينةُ بِمَبَانِيها وقِبَابِها وهبَّتْ علينا نسمَاتُ البَحْرِ الّذي يحيطُ بها فتذكَّرْتُ المرَّاتِ السابقةَ التي دخلْتُ فيها هذه المدينةَ وتمنَّيْتُ أنْ أكونَ مسافراً كما كُنْتُ في كلِّ مرة. وكانَتِ القافلةُ في هذه اللحظاتِ قدْ وصلَتْ إلى ساحَةِ المدينةِ ووضَعَتِ الرِّحالَ أمَامَ المِينَاءِ فنزلتُ منْ على الجملِ وجاءَ الرجلُ الطيِّبُ ليُهَنِّئني بسَلاَمَةِ الوُصُولِ وأخْبَرَني بأنه سيبحثُ لي عنْ قافِلَةٍ متَّجِهَةٍ إلى بَغْداد كيْ أعودَ مَعَها. فسألْتُه عمَّا إذا كانَ سَيَعُودُ معي؟ فأخْبَرَني بأنَّهُ مسافرٌ في البَحْرِ إلى بِلادٍ بَعِيدَةٍ للتِّجارَةِ ولنْ يعُودَ إلا بَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَان. ولمَّا سمعتُ هذا تَمَلَّكَنِي حَنِينٌ وشوقٌ إلى السَّفَرِ وكَرِهْتُ عَوْدَتي إلى بغداد فَقُلْتُ للرَّجُلِ إنّي سَأُسَافِرُ مَعَك إلى أيِّ مَكَانٍ. فقالَ الرَّجُلُ: «إنَّهُ يُشْفِقُ عَلَيَّ مِنْ هذا السَّفَرِ ومَخَاطِرِ البحرِ وإنَّ فَتْرَةَ غِيَابِهِ قدْ تطولُ أعْواماً». فَقُلْتُ لَهُ: إنِّي أعْلَمُ هذا وَقَدْ سَبَقَ لي السَّفَرُ عِدَّةَ مَرَّات. فأنا السندبادُ البحريُّ الّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ النَّاسُ. فَظَهَرَتِ الدَّهْشَةُ والسعادةُ علَى وجْهِ الرَّجُلِ وقالَ مُتَسَائِلاً: «أحقّاً أنْتَ السندبادُ البحريُّ؟! مرحَباً بِكَ يا كَبِيرَ التُّجّارِ ويا سيِّدَ البِحَارِ. لَطَالَمَا سَمِعْتُ عَنْك وتَمَنَّيْتُ أنْ أَلْقَاكَ. فأهْلاً بِكَ مَعِي ومَرْحَباً. ولْتَكُنْ مِنَ الآنَ شريكاً لِي في تِجَارَتِي»، فقلتُ لهُ بأنَّ معي ألفَ دينارٍ يُمْكِنُ أنْ نَشْتَرِيَ بها بَضَائِعَ أخْرى ولَوَازِمَ السَّفَر.

وتركتُ الرجلَ وذهبتُ منْ فَوْري إلى سُوقِ المَدِينَةِ واشتَرَيْتُ مِنْهُ ما يَلْزَمُ ثمَّ رأيتُ قافلةً تَسْتَعِدُّ للرَّحِيلِ إلى بغداد وبِهَا أَحَدُ التُّجَارِ الَّذِينَ أعرِفُهُمْ فكتبتُ رسالةً إلى عُمَّالي أُخْبِرُهُمْ بِسَفَرِي وما يَجِبُ أنْ يفعلوه حتَّى أعُودَ، وسَلَّمتُ الرِّسَالَةَ للرَّجُلِ وتوَجَّهْتُ إلى زَمِيلي بِمَا اشْتَرَيْتُهُ وَوَضَعْتُ أحْمَالي مَعَ أحْمَالِهِ فِي سَفينةٍ كبيرةٍ ومَعَنَا كثيرٌ مِنَ التُّجَار.

إنطلقَ بِنَا المَرْكَبُ تدفعُهُ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ وكانَ هذا قبلَ غُرُوبِ الشَّمسِ بقليلٍ، وآوى كلٌّ مِنَّا إلى مَكَانِهِ في دَاخِلِها فجَلَسْنَا نتجاذبُ أطرافَ الحَدِيثِ حتَّى غَلَبَنا النّعاسُ جَميعاً.

وفي الصَّبَاحِ صَعِدْنا إلى سطْحِ المركب نُمَتِّع أنْظَارَنا برُؤْيَةِ البَحْرِ ونستَنْشِقُ النَّسِيمَ الصَّافِي. ومرَّتْ أيامٌ عديدةٌ ونَحْنُ على هذا الحَالِ لا يُعَكِّرُ صَفْوَنا شَيْءٌ، حتَّى لاحَتْ لنا جَزيرَةٌ نَزَلْنا إليْها والتَقَيْنا بِسُكَّانِها فاشْتَرَوْا مِنَّا واشْتَرَيْنا مِنْهُمْ وأَصَبْنا رِبْحاً لا بَأْسَ بِهِ، ثُمَّ رَحَلْنَا إلى جَزِيرةٍ أخرى فَبِعْنَا واشتَرَيْنا وربِحْنا كَذَلِكَ رِبْحاً طيِّباً ثُمَّ رَحَلْنا عَنْها. وظَلَلْنا على هَذا الحَالِ شُهُوراً عَدِيدَةً ونَحْن نتنقلُ مِنْ جَزيرَةٍ إلى أخْرى ومِنْ شاطِئٍ إلى شاطئٍ ونحنُ نَبيعُ ونَشْتَرِي ونَجْني منْ وَرَاءِ ذلِكَ رِبْحاً وفِيراً حتَّى اكتَفَيْنا وقَرَّرْنا العَوْدَةَ إلى بِلادِنا ونحْنُ في غايَةِ السَّعادَةِ بما حقَّقْنا.

وسَارَ المَرْكَبُ في طريقِ العَوْدَةِ عِدَّةَ أيَّامٍ في صفاءٍ وهدوءٍ حتَّى جاءَ يومٌ تبدَّلَ فيهِ الحَالُ فَتَلَبَّدَتِ السماءُ وأظلمَ الكونُ وانتفضَ البحرُ انتفاضةً هائلةً، واشتدَّتِ الريحُ على الشِّرَاعِ فمزَّقَتْهُ وارتَفَع المَوْجُ منْ حَوْلِنا كالجبالِ فتلاعبَ بالسفينةِ كأنَّها حَصاةٌ في محيطٍ



هادرٍ وأخذَتْ تعلوُ وتهبِطُ وتتمايلُ بنا ذاتَ اليمينِ وذاتَ اليسارِ طَوالَ النّهارِ وشطراً من الليلِ ونحنُ في غايَةِ الخَوْفِ والهَلَعِ ندعُو إلى اللّهِ ونبتهلُ إليهِ أنْ يُنْقِذَنا.

وما أنْ أدبرَ اللّيلُ وأقبلَ الفجرُ حتَّى لاحَ في الأفقِ خيطٌ من الضَّوْءِ، فانقشعتِ الغُمَّةُ وخرجَتِ الشمسُ منْ مَكْمَنِها فبدَّدَتِ الظلْمَةَ وهدأَ البَحْرُ وسَرَى الدِّفْءُ في أجسادِنا وانبعثَ الأمَلُ في نُفوسِنا، وانْسابَ المركبُ على صفحةِ الماءِ مع التّيارِ بَعْدَ أنْ تَمزَّقَ شِرَاعُهُ بفعلِ العاصفةِ، وأخذَ البحّارةُ يعمَلُونَ في إصلاحِ التّلَفِ بينما المركبُ يجْذِبُهُ التيارُ إلى حيثُ لا نَدْري. وانتابَنا القلقُ لعَدَمِ استطاعَةِ القُبْطانِ التحكُّمَ في وُجْهَتِها.

ومضَى النهارُ كلُّهُ على هذا الحالِ وأعقبهُ اللّيْلُ وكانَ الجُهْدُ والخوفُ قد نالا منّا في اليومِ السّابِقِ، فآوَيْنا إلى النومِ لنصْحُوَ في صباحِ اليومِ الثّاني على نِداءِ أحَدِ البحّارَةِ ممَّنْ يعتَلُون الصَّوارِي بأنَّهُ يَرى في الأفُقِ جزيرَةً. فأسرَعْتُ إلى ظهْرِ المرْكَبِ ونظَرْتُ إلى حيثُ يُشيرُ فرأيتُها جزيرةً كبيرةً تُحيط بها الأشجارُ وتَعْلُوها الجِبالُ. وحمِدْنا اللّهَ ونحْنُ نتَّجِهُ إلى شاطئِها. غيرَ أنّنا شَعَرْنا بهزَّةٍ عَنيفَةٍ أوْقَعَتْنا جميعاً وجَعلَتِ المرْكَبَ يقفُ فَجْأةً بَعْدَ أنْ اعْتلى رِمالَ الشّاطِىءِ بَعْدَ التيّارِ الّذِي كانَ يَدْفعُهُ. وبعدَها نزلْنا جميعاً. وأمرَ القبطانُ البحارةَ بأنْ يحْمِلُوا مَعَهُمْ القُدُورَ والبَرامِيلَ الفارِغَةَ كيْ نتزوَّدَ منْ هذه الجزيرة بما يلزَمُنا مِنْ زَادٍ. وانطلَقْنا إلى داخِلِ الجزيرَةِ فوجَدْناها جَنَّةً وارِفَةَ الظِّلالِ كثيرةَ الأشْجارِ المَليئَةِ بالثّمار. وأرادَ كلٌّ منّا أنْ ينطَلِقَ على هَوَاهُ داخِلَ الجزيرةِ غيرَ أنّي تذكَّرْتُ ما مرَّ بي في إحدى رِحْلاتي السّابِقَةِ مِنْ بُعْدِي عنْ بَقيَّةِ زُملائي ورَحِيلِ المرْكَبِ



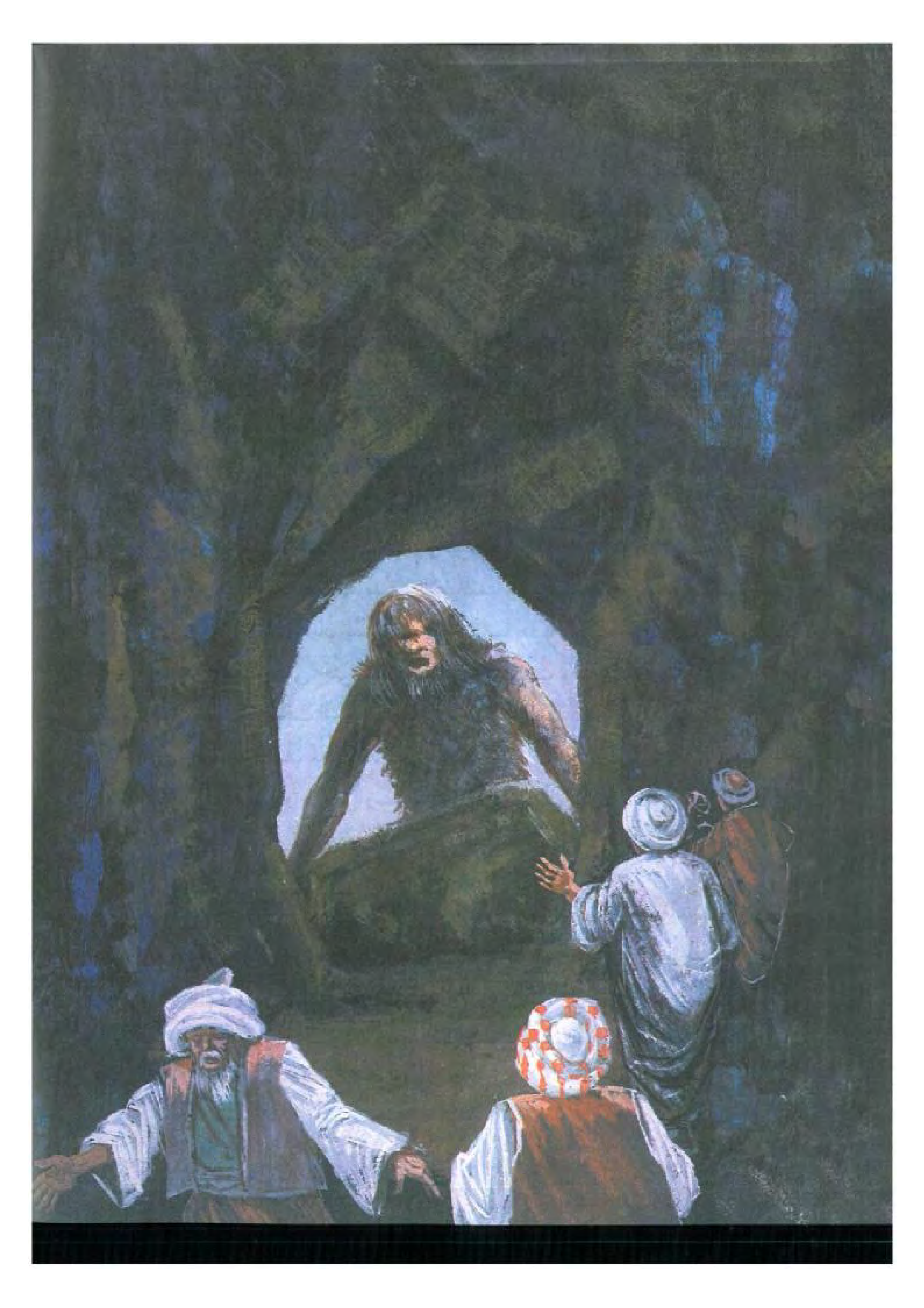
بِدُوني فَأشَرْتُ عَلَيْهِمْ بوجوب أن نَبْقى مَعَ بَعْضِنا وألاَّ يَنْفصِلَ واحِدٌ مِنَّا. وَوافَقَ القُبْطانُ على ذٰلِكَ. وانطَلَقْنا جميعاً داخِلَ الجَزيرَةِ ونَحْنُ سُعَداءُ بِما نَرى مِنْ ثِمارِها وجَداوِلِ أنْهارِها وأنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي كيفَ أنَّ هٰذا الخَيْرَ كلَّهُ لا يَجِدُ مَنْ يَنْعمُ بِهِ. وكيفَ أنَّ هٰذِهِ الجزيرةَ بما حَبَاها اللّٰهُ قدْ خَلَتْ مِنَ النَّاس. بَيْنَما هُنَاكَ بلدانٌ أخرى مَلِيئَةٌ بالنَّاسِ وأرْضُها جَرْدَاء. وخَرَجْنا مِنْ بَيْنِ الأشْجَارِ لِنَرى أرْضاً واسعَةً تُحيطُ بِها الجِبَالُ الَّتِي تَنْزَلِقُ مِنْهَا جَداوِلُ الماءِ وتَكْسُوها الأشْجَارُ. وقد خُيِّلَ إليَّ وأنَا أنْظُرُ إلَيْها أنَّ أشْيَاءَ تَتَحَرَّكُ بها ثُمَّ تَخْتَفِي. ولَمْ أشَأْ أنْ أُخْبِرَ أحَداً بهذا خوفاً مِنْ أنْ أكُونَ واهِماً وأُثِيرَ الرُّعْبَ في نفوسِ زُمَلائي. لكنِّي كنتُ أشْعُرُ في قَرارَةِ نَفْسي بِرَهْبَةٍ وخَوف. ويُداخِلُني إحْسَاسٌ بأنَّ هُنَاكَ مَنْ يراقِبُنا عَنْ بُعْد. وظَلَلْنا هٰكَذا طِوَالَ النَّهار. ومَعَ انْحِدارِ الشَّمْسِ خلْفَ الجِبالِ لِلْمَغيب. كانَتْ مخاوِفُنا تَزْدادُ فاقتَرَبْتُ مِنَ القبطانِ وهمَسْتُ في أذُنِهِ بضَرُورَةِ عَوْدَتِنا إلى الشَّاطِىءِ قريباً مِنَ السَّفِينةِ قَبْلَ أنْ يَحلَّ الظَّلام فَوَافَقَ الرَّجُلَ ونَادى في النَّاسِ بالعَوْدَةِ إلى الشَّاطِئ.

وفي طَريقِ العَوْدَةِ رأيْنا ما أفْزَعَنا جَميعاً وبَدَّدَ شَكِّي باليَقِين. فَقَدْ شاهَدْنا عَلَى الأرْضِ الرَّطبةِ حُفْرَةً كَبِيرةً وعَمِيقَةً على هَيْئَةِ قَدَمٍ لِعِمْلاقٍ هائِلِ الحَجْم أو مَارِدٍ عَظِيم. وعَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْها حُفْرَةٌ أخْرَى تُمَاثِلُها. فَوَقَفْنَا نَنْظُرُ في ذُهُولٍ وقَدْ تَمَلَّكَنا الخَوْفُ والرُّعْبُ مِمَّا نَرى. وأخَذْنا نَتَساءَلُ عَمَّنْ يَكُونُ صاحِبَ هٰذَا الأثَر. وهَلْ هُوَ مِنَ الإنسِ أو الجِنّ؟ وسَوَاءٌ كانَ هٰذا أو ذاكَ فَيَجِبُ عَلَيْنا أنْ نُسْرِعَ بالفِرارِ مِنْ هذا المَكَان. بلْ ومِنَ الجَزِيرَةِ كُلِّها.

وانطَلَقْنَا نَجْري بَيْنَ الأحْرَاشِ كَيْ نلحَقَ بالسفينةِ ونَحْنُ في حالةٍ مِنَ الهَلَعِ مِنْ هٰذِهِ المَخْلُوقَاتِ الَّتِي لا بُدَّ أنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وقَاتِلَة. وكانَ مِنْ نَتِيجَةِ خَوْفِنَا وَهَلَعِنا أنْ

ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ ولَمْ نَعُدْ نَدْرِي كيفَ الوُصُولَ إلى السَّفينةِ بَعْدَ أنْ حَلَّ الظلامُ وأصْبَحْنا ندوُرُ حَوْلَ أَنْفُسِنا. وَوَصَلَتْ إلى أسْمَاعنا أصْوَاتٌ مُرْعِبَةٌ تَزْأَرُ حَوْلنا مِنْ بَعيدٍ ومِنْ قَريبٍ لِتَزِيدَ مِنْ خَوْفنا. وبَعْد كَثْرَةِ دَوَرَانِنَا رأَيْنا مَغَارَةً في بَطْنِ جَبَلٍ فَقَرَّرْنا أنْ نَحْتَمِيَ فِيها حتّى الصَّباحِ طَالَما أنّنا لا نَعْرِفُ طَرِيقَنا. وأسْرَعْنا بالدُّخُولِ إلى هٰذِهِ المَغَارَةِ فَوَجَدْنَاها مُظلمةً لا نَرَى فِيها بَعْضَنا لٰكِنَّها كانَتْ خَيْرَ أَمَانٍ لَنا. وجَلَس كلٌّ منَّا في مكانٍ وهُوَ لا يَرى زَمِيلَهُ مِنْ شِدَّةِ الظلامِ، لٰكِنَّهُ كانَ يشعُرُ بقرْبِهِ مِنْ خِلَالِ صَوْتِه. ولمَّا كَانَ التعَبُ قد نَالَ مِنَّا فَقَدْ نَام الجَمِيعُ مِنْ حَوْلي بَيْنَما بقيتُ أنَا وَحْدي ساهراً لا يَغْمضُ لِي جَفْن. واسْتَطَعْتُ أنْ أُمَيِّزَ المَكانَ بَعْدَ أنْ تَعَوَّدَتْ عَيْنَايَ الظَّلَامَ فشَاهَدْتُ أشْيَاء كثيرةً مُتَنَاثِرَةً هُنَا وهُنَاك، لٰكِنّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُمَيِّزَها إلَّا بَعْدَ أنْ ظَهر أوَّلُ ضَوْءٍ للصَّباحِ فَبَدَتْ لِي حَقِيقَتُها المرْعِبَةُ. فَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ الأشياءُ عِظاماً وجَماجِمَ لِبَشرٍ وحَيَوانَات. وفُرُوع أشْجَارٍ بَعْضُها مُحْتَرِقٌ فَوْقَ رَبْوَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الرَّمَادِ وبَعْضُها مُدبَّبُ الأَطْرَاف. ولَمْ أَلْبَثْ أنْ قَفَزْتُ مِنْ مَكاني مذعوراً أصْرُخُ على زُمَلائي بأنْ يَسْتَيْقظوا. فَنَحْنُ إنما هَرَبْنا مِنَ الوَحْش لِنَسْكُنَ في عَرِينه. وما أنْ نَهَضَ زُمَلائي حَتّى كانَتِ الفُرْصَةُ قَدْ ضَاعَتْ وضِعْنَا نَحْنُ مَعَها. فَقَدْ أظْلَمَتِ المَغَارَةُ بَعْدَ أنْ حَجَبَ النورَ عَنْهَا جِسْمٌ هَائِلٌ يَقِفُ بِبَابِها فَلَا هُوَ مِنَ البَشَرِ ولا هُوَ مِنَ الْجَانِ. وإنَّما هُوَ الإثنانِ معاً. فقدْ كانَ عِمْلاقاً مُخِيفاً ضَخْمَ الجُثَّةِ كالمَارِد، أسْوَدَ اللَّوْنِ بَشِعَ الخلْقَةِ لَهُ عينٌ واحِدَةٌ في وسَط جَبهَتِهِ، أفْطَسَ الأَنْفِ غَليظَ الشِّفَاهِ، ولهُ نَابَانِ في فَمِه كأَنْيَابِ الفِيل. أو كَخِنْزيرٍ بَرِّيٍّ. ومَا أنْ شَاهَدْنَاهُ حتَّى غابَ أكثَرُنا عَنْ وَعْيِهِ.

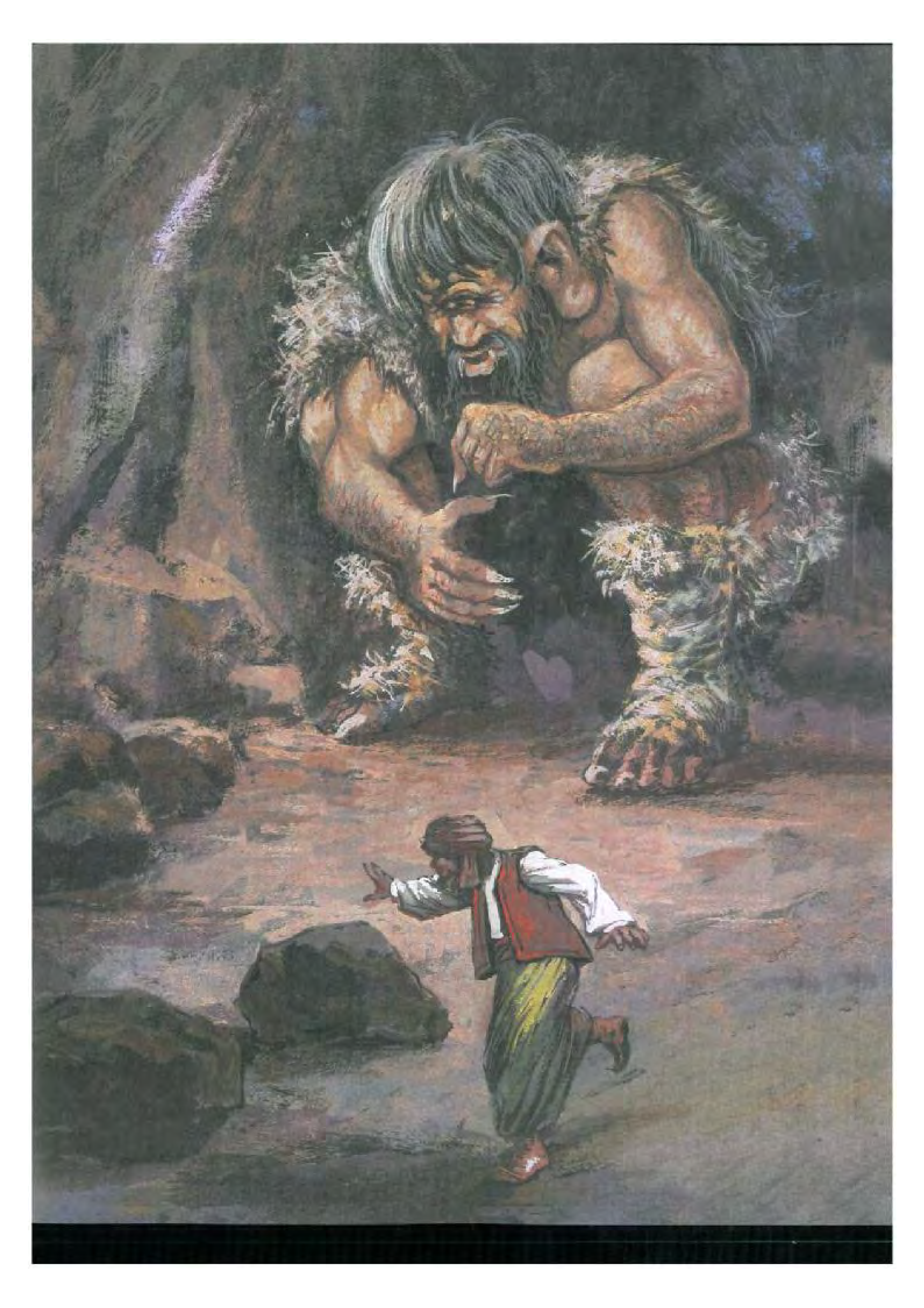
أمَّا المَارِدُ فأَخَذَ ينظُرُ إلَيْنا في بَلَاهَةٍ ودَهْشَةٍ وَمَدَّ يدَهُ يُقَلِّبُ فِينا وَاحِداً بَعْدَ الآخَرِ وكأنَّهُ يَزِنُنَا. وحينَ أمْسَكَ بِي صِرْتُ في يدهِ كالميتِ وضَغَطَ بِيَدِهِ عَلَى جَسَدِي فأَحْسَسْتُ بأضْلاعي تَكَادُ تَنْكَسِر وأيْقَنْتُ أنّي هَالِكٌ لا محَالَة. لٰكِنَّهُ أعَادَني إلى مَكاني وتَرَكَني لِيُمْسِكَ بِغَيْري فإذا هُوَ قبطانُ السَّفينةِ، وكانَ سَمِينَ الجَسَد مُكْتَنِزَ اللَّحمِ، فأَخَذَ يَتَحَسَّسُهُ



كَمَا يَتَحَسَّسُ الجَزَّارُ ذَبِيحَةً قَبْلَ ذَبْحِها وَدَلَّتْ قَسَمَاتُ وَجْهِهِ عَلَى أَنَّ هٰذَا الرَّجُلَ هُوَ بُغْيَتُهُ. ورَفَع يَدَهُ الأُخرَى إلى رأسِ الرَّجُلِ وفي لَحْظَةٍ كانَ الجَسَدُ فِي يَدٍ والرَّأْسُ مَفْصُولاً عَنْه في اليَدِ الأُخرى. فأَلْقَى الرأسَ إِلَى الأَرْضِ وأخَذَ يخْلَعُ عنِ الرَّجُلِ المِسكينِ مَلاَبِسَهُ كما يُقَشِّرُ القِردُ إِصْبَع الْمَوْز. حَدَثَ كلُّ هٰذا ونَحْنُ نَنْظُرُ فِي ذُهولٍ ورُعبٍ كادَ يَقْضِي عَلَيْنا. ثُمَّ رَأيْناهُ بَعْدَ هٰذا يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى جِسْمِ شَجَرَةٍ مُدَبَّبَةِ الأَطْرافِ فَأَدْخَلَهُ في جَسَدِ الرَّجُلِ فَصَارَ كالكَبَابِ دَاخِلَ السِّيخ، ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ حَجَرَيْنِ فَصَدَرَ مِنْهُمَا شَرَرٌ عَلِقَ بِبَعْضِ الأَعْشَاب فاتَّقدَتْ منها النِّيران، وأخَذَ يُقَلِّبُ الرَّجُلَ عَلَيْها حتَّى نَضِجَ لَحْمُهُ وفَاحَتْ رَائِحَةُ الشِّواءِ، فَالْتَهَمَهُ فِي لَذَّةٍ وشَرَاهَةٍ ولَمْ يَبْقَ مِنه إِلَّا العظامَ فأَلْقَى بِهَا واسْتَلْقَى على الأَرْضِ وَتَثَاءَبَ، ثُمَّ عَلا شَخِيرُهُ، وغَطَّ فِي النَّوْم. أمّا نَحْنُ فَقَدْ بَكَى البَعْضُ مِنّا على سُوءِ المَصِيرِ وعلا النحيبُ داخِلَ المَغارَةِ المَلْعُونَة الَّتي يَسْكُنُها هٰذا اللَّعِينُ السَّفَّاح. والَّذِي أَلْقَتْ بِنَا المقادِيرُ إِلَيْهِ وجَعَلَتْنا بَيْنَ يَدَيْهِ. وظَلَّ كلٌّ مِنّا فِي مكانِهِ لا يَقْدِرُ على الحَرَكَةِ وكأَنَّ أَقْدامَنا قَدْ شُلَّتْ.

ومضَى وقْتُ طَوِيلُ هُوَ النهارُ بِكَامِلِه قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ هٰذَا المَارِدُ. وقَبْلَ أَنْ نَفِيقَ مِنْ هَوْلِ ما رَأَيْناه. وما أَنْ أظلمَتِ الدنْيا خارِجَ المَغارَةِ حتّى رَأَيْناهُ يَتَقَلَّبُ ثُمَّ ينهَضُ جالِساً وينظُرُ إِلَيْنا ويتفَحَّصُ فِي أَجْسَامِنا حتّى رَاقَهُ واحِدٌ مِنّا فَأَمْسَكَهُ ونَعَلَ بِهِ ما فَعَلَهُ بالقُبْطانِ، وكانَ الرجُلُ يَصْرُخُ بَيْنَ يَدَيْهِ صُراخاً انْخَلَعَتْ لَهُ قُلُوبُنا. وبالرَّغمِ مِنْ هٰذا فقَدْ كَانَ كُلُّ مِنّا سَعِيداً في دَاخِلِه بأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَكانَ هٰذا الرَّجُلِ المِسْكِينِ الَّذِي أَصْبَحَ الضَّحِيَّةَ الثَّانِيَةَ.

وبَعْدَ أَنْ فَرَغَ المَارِدُ مِنَ الْتِهَامِهِ قَامَ مِنْ مَكانِهِ واتَّجَهَ إلى بَابِ المَغَارَةِ وانْصَرَفَ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ حَجَراً كَبِيراً عَلَى الْبَابِ يَحُولُ دُونَ خُرُوجِ أَحَدٍ مِنّا.



وهٰكذا وَضَحَتْ لَنا النِهايَةُ المَحْتُومَةُ لِكُلٍّ مِنَّا فَجَلَسْنا حَزَانى ننتَظِرُ قَدَرَنا ونَنْدُبُ مَصيرَنا وتَمَنَّيْنا لَوْ كُنَّا قَدْ غرِقْنا فِي البَحْرِ واحْتوَتْنا الأمْوَاج. وبَعْدَ بُرْهَة اسْتَسْلَمْنا جَميعاً لِقَضائِنا. بل إنَّنا مِنْ شِدَّةِ اليأْسِ قَدْ غَلَبَنا النُعاسُ فَنامَ البَعْضُ مِنَّا وكُنْتُ واحداً مِنْهُمْ. والغريبُ أنَّني شاهَدْت أحلاماً كثيرةً متقطِّعَةً مَعَ تَقَطُّعِ نَوْمي. مِنْها ما يُسِرُّ ومنها ما يُخِيفُ. فأحْياناً أراني وقَدْ نَجَوْتُ ممَّا أنا فِيهِ وعدْتُ إلى قَصْرِي في بَغْداد. ثُمَّ أصْحُو لأجِدَ نَفْسِي فِي المَغارَةِ خائفاً أتَرَقَّبُ عَوْدَةَ هٰذا الوَحْشِ. ثُمَّ أعُودُ فأغْفُو فأرَى أنِّي الضَحِيَّةَ التَّالِيَةَ فأسْتَيْقِظُ مَذْعُوراً.

وهٰكذا ظَلَلْتُ بَيْنَ اليَقْظَةِ والنَّوْمِ حتَّى لاحَ ضَوْءُ النَّهارِ وكُنْتُ أوَدُّ ألَّا يأْتِيَ الصَّباحُ أبداً. فقد ظَهَرَ مَعَهُ العِمْلاق وهُوَ يُزَحْزِحُ الصَّخْرَةَ مِنْ عَلَى بَابِ المَغارَةِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْنا والمَوْتُ والخَوْفُ كُلُّه مَعَه. وامتدَّتْ يَدُهُ إلى أحَدِنا وكانَ مصيرُه مِثْلَ الَّذيْنِ سبَقاه، ولٰكِنَّا أغْمَضْنا عُيُونَنا هٰذِهِ المَرَّةَ حتَّى لا نَرى شيئاً. وبعْدَ أنِ اسْتَلْقَى ونَامَ أخذتُ أنْظُرُ إليهِ فِي غَيْظٍ وحَنَقٍ وتمنَّيْتُ لَوْ أنِّي أسْتَطِيعُ أنْ أطْبِقَ على عُنُقِهِ الَّذي كانَ أضْخَمَ مِنْ جِذْعِ شَجَرَةٍ كَبِيرَة. ثم تمنَّيْتُ مَرَّةً أخْرَى لَوْ أشْعِلُ فِيه ناراً. ولٰكنْ مِنْ أيْنَ لي بِزَيْتٍ ألْقِيهِ حَتَّى يسْهُلَ اشْتِعَالُه.

كلُّ هٰذهِ الأفكارِ راوَدَتْني وأنا أنْظُرُ إليهِ وأُفَكِّرُ فيمَنْ يكونُ ضَحِيَّتَهُ التَالِيَةَ حينَ يستَيْقِظُ. وأخذتُ أنظُرُ إلى مَنْ حَوْلِي فإذا هُمْ سَاهُونَ صَامِتُون كالأمْوات. وكنتُ أنا أضْعَفَهُمْ وأهْزَلَهُمْ جسداً ولِذا فَقَدْ عَلِمْتُ أنَّني عَلَى الأقل سأكُونُ آخِرَ الضَّحَايا. وشَعَرْتُ في قرارَةِ نَفْسِي بالأسَى على زُمَلائِي الَّذِينَ سيَسْبِقُونَني إلى هٰذا المَصِير. وكأنِّي بعيدٌ عَنْه. فأخَذْتُ أفَكِّرُ مرَّةً أخرى في قَتْلِه بأيِّ وَسِيلَة. وألْهَمَنِي اللّهُ فِكْرَةً جَمِيلَةً وأنا أنْظُرُ إلى فَرْعِ الشَّجَرَةِ المدبَّبِ الَّذي يَشْوِي عَلَيْهِ النَّاس. وزحَفْتُ في خِفَّةٍ إلى زُمَلائي وأخْبَرْتُهُمْ بِمَا فِي نَفْسِي فَلَمْ أرَ منهُمْ حَماساً لِفِكْرَتِي وخَافوا مِنْ فَشَلِها فقُلْتُ لَهُم: «وماذا

يُفيدُكُمْ لَوْ فَشِلْنا. إنّنا مَقْتولونَ عَلى أيّةِ حالٍ. فلْنُحاوِلْ. وخَيْرٌ لَنا أنْ نَموتَ ونَحْنُ نُدافِعُ عَنْ أنْفُسِنا مِنْ أنْ نَموتَ ونَحْنُ نَنْتَظِر». وكانَتْ كَلِماتي هٰذِهِ سَبَباً في اقْتِناعِهِمْ. وبدأوا يُقْنِعُونَ بَعْضَهُم البَعْضَ بأنّهُ يجِبُ أنْ نَفْعَلَ شَيئاً. ولكنْ ما أنْ استَقرَّ رأيُهُمْ حتّى نهضَ المارِدُ وفَعَل بأحَدِهِمْ ما فَعَلَ بِسواهُ. والعَجِيبُ أنَّ الرَّجُلَ كانَ يَصرُخُ بَيْنَ يَدَيْهِ ويقولُ لَهُ: «أتركْنا وأنا أخْبِرُكَ بأنهُمْ سيقْتُلُونَك». ولٰكِنَّ المارِدَ لَمْ يَفْهَمْ ما يَقولُهُ الرَّجُلُ وذَهَبَ والسِرُّ مَعَهُ إلى بَطْنِ المارِدِ اللّعِين. وكانَ المشهَدُ في هذهِ المرَّةَ قَدْ ألْهَبَ الحَماسَ في بَقِيّةِ الزُّمَلاءِ فالْتَفُّوا حَوْلي بَعْدَ أنْ خَرَجَ المارِدُ مِنَ المَغارَةِ وقالُوا لي: «ماذا نَفْعَلُ؟» فقلتُ لَهُمْ: لَيْسَ أمامَنا إلّا هٰذا الفرْعُ المُدبَّبُ الّذي يَشْوِينا عَلَيْه. فإذا استَطَعْنا أنْ نَحْمِلَهُ جَمِيْعاً وهُوَ نائِمٌ ثُمَّ نُدْخِلُهُ فِي عينِهِ فَنَفْقَأها. ثم نَفِرُّ هارِبينَ. فوافَقوا جَميعاً على قَوْلي وتَعاهَدْنا على ألّا نَخاف بَعْدَ ذلك. وجَلَسْنا نَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُ وقَدْ ذهبَ الخوفُ عنّا عِلْماً بأننا نَعْلَمُ أنَّهُ سَيَكُونُ هُناكَ أحَدُ الضَّحايا حِينَما يَعُود.

وعادَ المارِدُ مِنَ الخارجِ وكلٌّ منا يدعُو اللّٰه فِي داخِلِه ألّا يأتِي الدَّوْرُ عَلَيْهِ هٰذِه المَرَّة. فإنَّ الأمَلَ في الحياةِ أصْبَح أقربَ مِنْ ذِي قَبْل. ولكنْ كانَ الاختيارُ للمارد نَفْسه حَيْثُ وَضَعَ يَدَهُ هٰذِه المرَّةَ عَلى الرَّجُلِ الطيِّبِ الّذِي أنْقَذَ حَياتي فِي الصَّحْراء، فَحَزِنْتُ لِأجْلِهِ وتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ وقُلْتُ هٰذا قَدَرُهُ وقَضاءُ اللّٰه. وجَعَلني الحزْنُ عليهِ أمْتَلِيءُ غَضَباً وحَنقاً على هٰذا الجبَّار العاتي. ومَا أنْ استَلْقى وعَلا شخيرُهُ حتّى أشَرْتُ إلى بَقِيَّةِ الزُّمَلاءِ بأنْ يَحْمِلوا الفَرْعَ المُدبَّبَ فحَمَلُوهُ وأنَا فِي أوَّلِهِمْ وتَقَدَّمْنا خُطُواتٍ نَحْوَهُ وهُوَ نائِمٌ مُسْتَنِدٌ إلى بابِ المَغارَةِ. واستَطَعْتُ أنْ أجْعَلَ الفَرْعَ فِي مُسْتَوى ارْتِفاعِ عَيْنِه. ثُمَّ قُلْتُ لِزُمَلائي: «الآنَ نَعُودُ إلى الخَلْفِ ثُمَّ نَنْدَفِعُ جَرْياً نَحْوَه». فتَقَهْقَرْنا إلى الخَلْفِ بِضعِ خُطُواتٍ ثُمَّ انْدَفَعْنا بكُلِّ سُرْعَتِنا لأضَعَ الفَرْعَ المُدَبَّبَ فِي عينِهِ فإذا هُوَ يخْتَرِقُهَا وتَنْدَفِعُ مِنْها الدِّماءُ مَعَ صَرْخَتِه المُدَوِّيَةِ الّتِي أحسَسْنا مِنْ هَوْلِها أنَّ المَغارَة ستَتَفَتَّتُ مِنْها. وإذا بِهِ



يهبُّ واقفاً ويدفعُ بيدَيْهِ في الهَوَاءِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُمْسِكَ بِنَا ونَحْنُ نَفِرُّ مِنْ هُنَا وهُنَاكَ حتَّى وَصَلْنا إلى فُتحةِ آلبَابِ وانطلَقْنَا مِنْها كَمَا يَنْطَلِقُ السَّهْمُ مِنَ القَوْسِ وأخذْنا نَجْرِي بِكُلِّ سُرْعَةٍ ونَنْدَفِعُ بِكُلِّ قُوَّةٍ حتَّى لا يَلْحَقَ بِنا. وما أَنْ لاحَ لنا الشاطىءُ ورأَيْنا المرْكَبَ رَاسِياً في مَكَانِهِ حتَّى فَرِحْنا وحمَدْنا آللّهَ على النَّجَاةِ وآنْطلَقْنا بِسُرْعَةٍ أكْبَرَ بَعْدَ أَنْ أكْسَبَتْنا الفرْحَةُ قُوَّةً على ما نَحْنُ فِيهِ مِنْ ضَعْفٍ إلى أَنْ وصَلْنا. ولكنَّ المرْكَبَ كانَ لاَ يَزالُ غَائِصاً في رِمالِ الشاطىءِ لا يتحرَّكُ. فأخذنا نجذِبُهُ بالحِبَالِ بِمَا بَقِيَ فِينا مِنْ قُوَّةٍ حتَّى تحرَّكَ مِنْ مَكَانِهِ بَعْدَ عِدَّةِ مُحَاوَلات. وما أَنْ رَكِبْنا وتحرَّكَ بِنا قليلاً حتَّى ظَهَر هذا اللَّعِينُ وَمَعَهُ مارِدٌ آخَرُ يَبْدو أنَّهَا أُنْثَاهُ وهُمَا يصرُخَانِ ويقذفَانِ عَلَيْنا بالصُّخُورِ الكبيرة. فسقَطَتْ واحِدَةٌ منْها فوْقنا وقَتَلَتْ ثَلاثَةً مَرَّةً واحِدَة. وكنَّا قَدْ رَفَعْنا شِراعاً واحِداً بَعْدَ أَنْ تَمَزَّقَتْ باقِي الأشْرِعَةِ بِفِعْلِ العَاصِفَة. فكانَتْ حَرَكَةُ المرْكَبِ بطِيئَةً وثَقِيلَةً، لكنَّنا نَجَوْنا بحَمْدِ آللّهِ وأَصْبَحْنا بَعِيدِينَ عَنِ الجَزِيرَةِ بحيْثُ لا يَقْدرُ شيْءٌ عَلَى اللَّحاقِ بِنا.

وبَعْدَ أَنْ صِرْنا داخِلَ البَحْرِ ترحَّمْنا على مَنْ مَاتَ مِنَّا وألْقَيْنا بجُثَثِهِمْ إلى المَاءِ ثُمَّ جَعَلْتُ نَفْسِي قبطاناً للمرْكَبِ وكانَ قَدْ بَقِيَ بَعْضُ البَحَّارَةِ فَأَمَرْتُهُمْ بأَنْ يُصْلِحُوا الأشْرِعَةَ الأُخْرَى آلمُمَزَّقَةَ فَفَعَلُوا وسارَ بِنا آلمَرْكَبُ إلى حَيْثُ يَعْلَمُ آللّهُ وتُرْشِدُنا نُجومُ السَّماء. ولَكِنْ صادَفَتْنا عَقَبَةٌ أُخْرَى لَمْ تكُنْ فِي خُطُورَتِها وشِدَّتِها أقَلَّ ممَّا كُنَّا فيه.

فَبَعْدَ عِدَّةِ أيَّامٍ نَفِدَ مِنَّا الزَّادُ ولَمْ يَبْقَ مِنَ الماءِ إلا القَلِيلُ. فَتَحَمَّلْنا الجُوعَ لِعِدَّةِ أيَّامٍ أوشَكْنَا فِيها عَلَى الهَلاكِ. لَكِنْ إذا نَفِدَ فَهُوَ المَوْتُ لا محَالَة. ومَعَ شِدَّةِ اقْتِصادِنا لِكُلِّ قَطْرَةِ مَاءٍ إلاَّ أَنَّ الماءَ نَفِدَ كلُّه ولَمْ يبقَ أمامَنا إلا أَنْ نُسَلِّمَ أمْرَنا لله وكَأَنَّنا نَجَوْنا مِنْ خَطَرِ المَوْتِ إلى المَوْتِ نَفْسِهِ. ولكنْ كانَتْ رَحْمَةُ آللّهِ واسِعَةً. ففي اليومِ الثَّاني رأَيْنا جَزِيرَةً فَهَلَّلْنا لِرُؤْيَتِها وتَبادلنا التهنئة بِسَلامَتِنا.

وحينَ نَزَلنا إلى الجزيرةِ وَجَدْنا بِهَا المَاءَ والثِّمارَ وكُلَّ ما تَقَرُّ به أعْيُنُنا مِنْ حَيوانَاتٍ بَرِّيَّةٍ مِثْلِ الغَزَالِ والوُعُولِ والأرَانِبِ. فأكَلْنا وارْتَوَيْنا واسْتَرَحْنا مِنْ تَعَبِنا وقَرَّرْنا أنْ نأخُذَ مِنْ هٰذِهِ الجَزِيرةِ كلَّ ما نَحْتَاجُ إلَيْه. فأصْدَرْتُ أوَامِرِي إلى البَحَّارَةِ بأنْ يَذْهَبُوا إلى السَّفِينَةِ لِيُحْضِرُوا القدورَ والبَرامِيلَ فَذَهَبُوا ثُمَّ عادُوا بَعْدَ بُرْهَةٍ يَلْطُمُونَ خُدُودَهُمْ ويَقُولُونَ إنَّ السفينَةَ قَدْ جَذَبها التيَّارُ إلى داخِلِ البَحْرِ وتَذَكَّرْتُ أنَّنا نَسِينا أنْ نُلْقِيَ بالمِرْسَاةِ إلى القَاعِ لِتَسْتَقِرَّ السَّفينةُ فِي مَكَانِها. فَنَدِمْتُ عَلى ما حَدَثَ وعَلَى جَهْلِي بأمُورِ المِلاَحَةِ وقُلْتُ هٰذا قَدَرُ اللّهِ أنْ نَعِيشَ عَلَى هٰذِهِ الجَزيرَةِ حتّى يَقْضِيَ فِينا بِأمْرِهِ. والَّذِي نَجَّانا مِنْ بَرَاثِنِ الوَحْشِ اللَّعِينِ لَنْ يَنْسانا فِي هٰذا المَكَانِ.

مَضَتْ أيامٌ عَلَيْنا في الجزيرةِ ونَحْنُ في أهْنَأ عَيْشٍ بِمَا قَسمَ اللّهُ لَنا فِيها مِنْ طَعَامٍ وَشَرابٍ. إلى أنْ كانَ يومٌ هاجَمَنا فِيهِ وَحْشٌ مِنْ حَيوانَاتِها المُفْتَرِسَةِ فَأكَل واحِداً مِنَّا ونَحْنُ نِيَامٌ. ولِذٰلِكَ فَقَدْ أشَرْتُ على بَاقِي الزُّمَلاءِ بأنْ نَشْرَعَ في بِنَاءِ كوخٍ يكونُ لَنا حِصْناً مِنْ هٰذِهِ الوُحُوشِ الَّتي تَمْتَلِئُ بِها الجَزِيرَةُ. والَّتِي تَجِدُ فِيها كلَّ أسْبابِ الحَيَاةِ. ومَضَتْ أيَّامٌ ونَحْنُ نَعْمَل بِجِدٍّ ونَشَاطٍ فِي قَطْعِ الأشْجَارِ وبِنَاءِ هٰذا الكُوخِ. وخِلالَ تِلْكَ الأيَّامِ فَقَدْنا أرْبَعَةً مِنْ زُمَلائِنا كانَتْ تَفْتَرِسُهُمْ هٰذِهِ الوُحُوشُ وهُمْ يَقْطَعُونَ الأشْجارَ. وما أنْ انتَهَيْنا حتَّى صَارَ البَاقِي ثَلاثَةً وأنَا رابِعُهُم. وقَدْ قَسَّمْنا العَمَلَ فيما بَيْنَنا بالتَّساوِي. وكانَ الخَطَرُ كلُّهُ يَكْمُنُ فِي خُرُوجِ أحَدِنا للصَّيْدِ حِينَ يَأْتِي دَوْرُهُ. فلَمْ تَمْضِ أيَّامٌ قليلةٌ حتَّى التَهَمَ ذِئْبٌ واحداً مِنَّا وبَقِيَ اثْنَانِ مَعِي. وفِي يومٍ آخَرَ تسلَّلَ ثعبانٌ سَامٌّ ونَفَثَ سَمَّهُ في واحِدٍ وأصْبَحْنَا اثْنَيْنِ. حِينَئِذٍ دَبَّ الخوفُ فِينا وظَلَلْنا أيَّاماً لا نَقْدرُ عَلى الخُروجِ خَوْفاً مِنْ أنْ يَفْتِكَ بِنَا حَيوانٌ. وبِرغْمِ الجُوعِ والعَطَشِ فإنَّ زَمِيلِي رَفَضَ أنْ يُغادِرَ الكُوخَ وفَضَّلَ المَوْتَ جُوعاً عَلَى أنْ يَلْتَهِمَهُ حَيَوانٌ. ولَمْ أجِدْ أمَامي إلاّ الخُرُوجَ وحْدي بَعْدَ أنْ رأيتُ الرَّجُلَ الوَحِيدَ البَاقِي مَعِي والَّذِي يُؤنِسُ وَحْدَتي عَلَى وَشْكِ الهَلاكِ مِنْ قِلَّةِ الغِذَاءِ.

فخَرَجْتُ إلى الغَابَةِ وبِيَدِي خِنْجَرِي وحَرْبَة مِنَ الحِرَابِ الَّتي صَنَعْنَاهَا بِأَيْدِينَا للدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِنَا وأخَذْتُ أَتَسَلَّلُ بَيْنَ الأَشْجَارِ لَعَلِّي أَجِدُ أَرْنَباً أو طائِراً أو غزالاً أو أيَّ شَيْءٍ يَكُونُ طَعَاماً لي ولِزَمِيلي. وبينَمَا أنَا أَسِيرُ حانَتْ مِنِّي الْتِفَاتَةٌ إلى الخَلْفِ نَاحِيَةَ الكُوخِ ثُمَّ سَمِعْتُ صُرَاخَ زَمِيلي فَأَسْرَعْتُ بالعَوْدَةِ مُهَرْوِلاً. وَمَا أنْ دَخَلْتُ البَابَ حَتَّى رأيْتُ أَمَامِي أَبْشَعَ مَنْظَرٍ وَأَقْبَحَ صُورةٍ. فَقَدْ كَانَ الرجلُ المِسْكِينُ مُمَزَّقاً قِطعاً قِطَعاً وقَدْ أَمْسَكَ قِرْدٌ كَبِيرٌ قرِيبُ الشَّبَهِ بالإنْسَانِ بِقِطْعَةٍ مِنْ لَحْمِ الرَّجُلِ وأخَذَ يَنْهَشُها. وما أنْ رآني حتَّى صَرَخَ فِي وَجْهِي صرْخَةً مُدَوِّيَةً جَعَلَتِي أَقْفِزُ مِنْ أَمَامِهِ وأَجْرِي بِلاَ وَعْيٍ، وَلاَ شُعورٍ غَيْرِ الإحساسِ بِالخَوْفِ الَّذِي جَعَلني أَنْطَلِقُ بَيْنَ الأحْرَاشِ وأَقْفِزُ فَوْقَ الأَغْصَانِ حتَّى وَجَدْتُ نَفْسِي في النهايَةِ فَوْقَ رَبْوةٍ عالِيَةٍ كأنَّها نِهَايَةُ العَالَم. فجلَسْتُ مَكَاني وقَدْ غَلَبَني البُكَاءُ عَلَى زَمِيلي ٱلمِسْكِينِ وَعَلَىٰ مَصِيرِهِ ٱلمُؤْلِم. ثُمَّ أَخَذْتُ أَتَفَكَّرُ فِي حَالِي وَوَحْدَتِي وَجَعَلْتُ أَلُومُ نَفْسِي الَّتِي طَالَمَا أَسْلَمَتْنِي لِلْمَهَالِكِ. وَبَيْنَمَا أَنَا كَذٰلِكَ إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً بِجَانِبِي فَتلفَّتُ حَوْلِي لأَرَىٰ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنِّي دُبّاً كَبِيراً وَقَدْ وَقَفَ عَلَىٰ قَدَمَيهِ وَرَاحَ يُلَوِّحُ بِيَدَيْهِ فَرِحاً بِرُؤْيَتِي. وَلَمْ يَكُنْ لِي



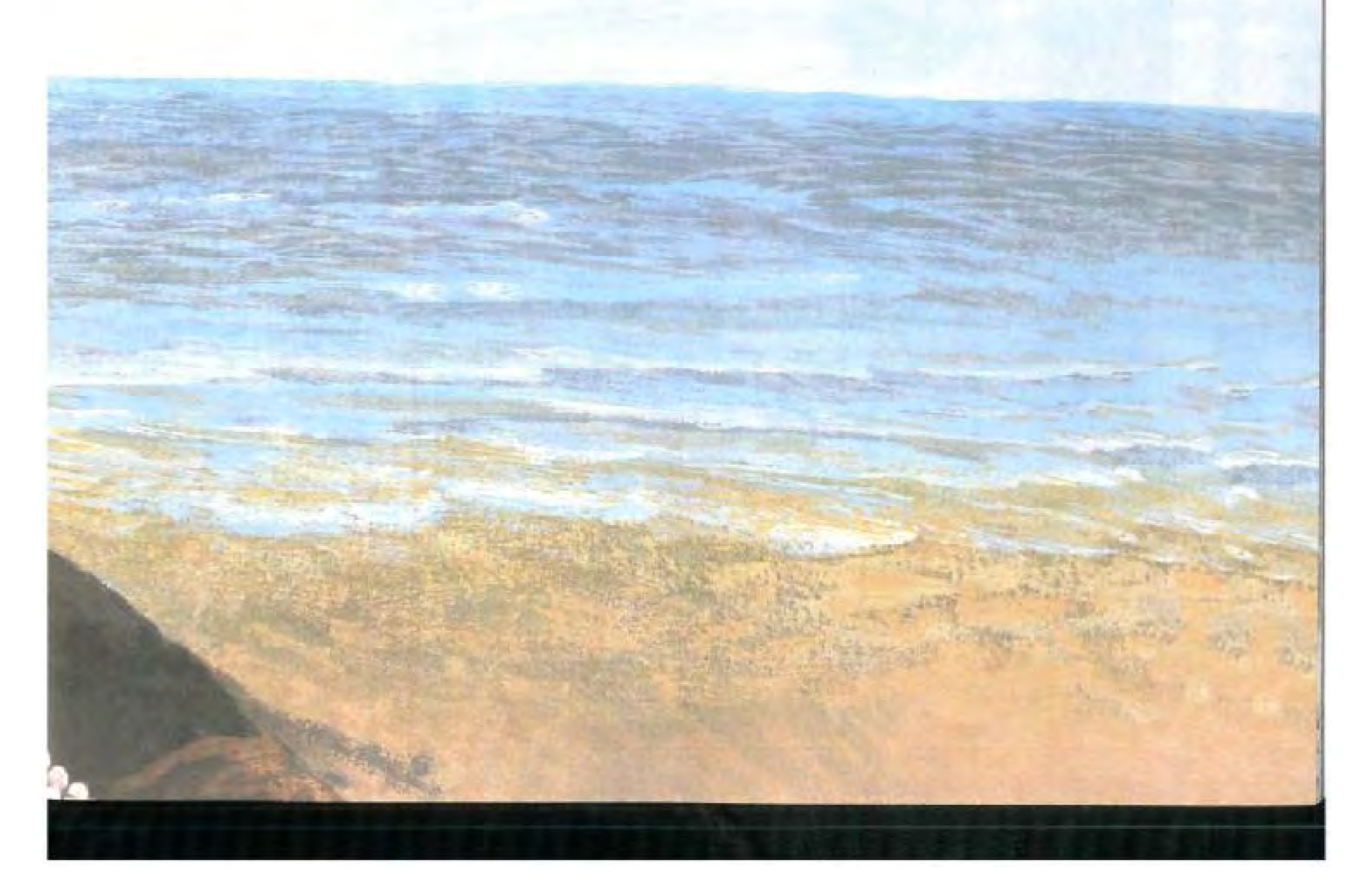


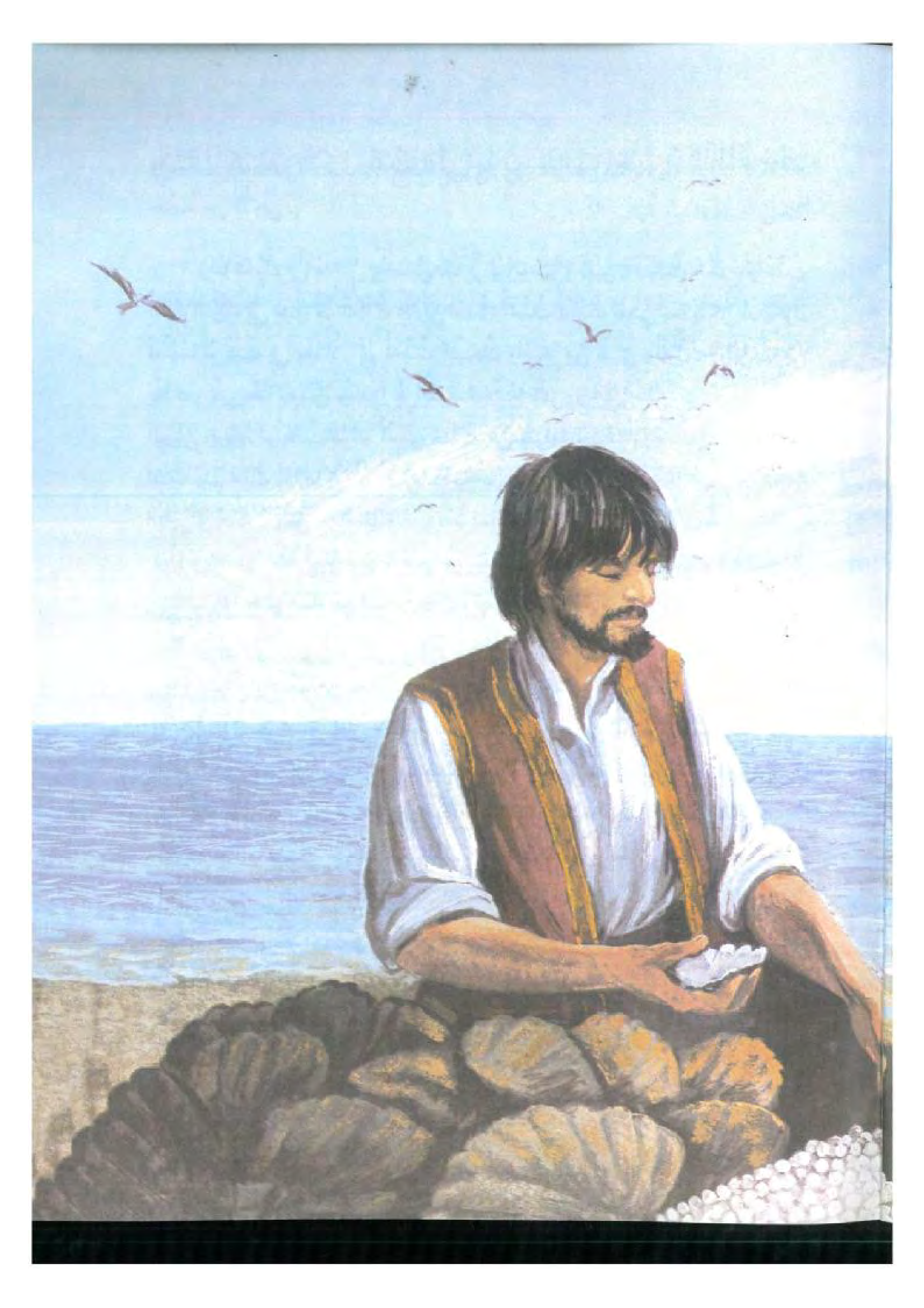
مَهْـرَبٌ مِنْـهُ. فَلَيْسَ أَمَامِي سِوَىٰ أَنْ أَقْفِزَ مِنْ فَـوْقِ الجَبَلِ أَوْ أَتْـرُكَ نَفْسِي لَـهُ يَفْعَلُ بِي مَـا يُرِيد.

ولٰكِنْ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ كانَ هُنَاكَ زائِرٌ آخَـرُ أرادَ أنْ يُقَـاسِمَ آلدُّبَّ فِي فَرِيسَتِهِ الَّتي هِيَ أَنَا. وكانَ هٰذَا الزائِرُ ذِئْباً مُفْتَرِساً يَبْدو أَنَّـهُ جَائِعٌ لَمْ يَـذُقِ الطَّعَـامَ مُنْذُ عَام. فـآلتَفَتَ إليهِ آلدُّبُّ وأَشَاحَ بِيَدَيْهِ فِي وَجْـهِ الـذئبِ لِيَبْتَعِـدَ. ولكنَّ الذئبَ كانَ عنيداً وأخَذَ وَضْعَ الهُجُومِ عَلَى الدُّبِّ. ولَمْ تَمْضِ لَحْظَةٌ حتَّى كانَ الذئبُ يُنْشِبُ أنْيابَهُ فِي جَسَدِ آلدُّبِّ لِيَدْخُلَ الإِثْنَانِ فِي مَعْرَكَةٍ عَنِيفَةٍ أصْبَحَتْ بِآلنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا مَعْرَكَةَ حَيَاةٍ أَوْ مَوْت. ووَجَدْتُ في آلتِحَامِهِمَا فُرْصَتِي فِي الْهـرُوبِ وظَلَلْتُ أَجْرِي هذِهِ آلمَرَّةَ فِي آتجاهِ البَحْرِ لأُلْقِيَ بِجَسَدِي فِيهِ وأَتْرُكَ نَفْسِي للأَمْواجِ تَفْعَلُ بِي ما تَشاءُ وأَسْتَرِيح مِنْ هٰذِهِ الحَيَاةِ الَّتِي يَتَرَبَّصُ آلمَوْتُ لِي فِي كُلِّ شِبْرٍ مِنْها.

ولكِنَّ حَلاوَةَ الرُّوحِ جَعَلَتْنِي أعْدِلُ عَنْ هٰذِهِ الفِكْرَةِ وقُلْتُ: لا يَجُوزُ أنْ أيْأسَ مِنْ رَحْمَةِ ٱللّٰهِ. فجلستُ عَلى الشّاطِىءِ أفكِّرُ في طَرِيقَةٍ أرْفَعُ بِهَا الخَطَرَ عَنْ نَفْسِي ومَكانٍ آمِنٍ آوِي إلَيْهِ بَعْدَ أنْ عَرَفَ هٰذا الغُولُ مَكَانَ الكُوخِ.

وطالَتْ جِلْسَتِي عَلى الشّاطِىءِ بَعْدَ أنْ ٱتَّخَذْتُ مَكَاناً آمناً بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ. وبالرَّغْمِ مِنْ أنَّ الأمْوَاجَ كانَتْ تَلْطُمُ الصَّخْرَتَيْنِ فَتَدْفَعُ المَاءَ تَحْتِي حَيْثُ أجْلِسُ وتَبْتَلُّ مَلابِسِي إلاَّ أنِّي أحسَسْتُ بالأمَانِ وَلَمْ أتْرُكْ مَكَانِي. وجَاءَتْ مَوْجَةٌ قَوِيَّةٌ فَدَفَعَتِ المَاءَ مِنْ حَوْلِي ثُمَّ ٱنْحَسَرَ المَاءُ عَنِّي ثانِيَةً لأجِدَ قَوْقَعَتَيْنِ فَوْقَ الرِّمَالِ بِجَانِبِي. فحَمَدْتُ ٱللّٰهَ عَلَى إرْسَالِهِ لِي هٰذِهِ القَوَاقِعَ لِتَكُونَ غِذَائِي. وأخَذْتُ واحِدَةً مِنْها فَفَتَحْتُها لأجِدَ بِداخِلِها لُؤْلُؤَةً كَبِيرَةَ الحَجْمِ بدلاً مِنَ اللَّحْمِ. فأمْسَكْتُ باللُّؤْلُؤَةِ مُتَحَسِّراً رَغْمَ قِيمَتِها وتَمَنَّيْتُ لَوْ كَانَتْ غِذَاءَ مِن ٱلمَحار. فَمَا حَاجَتِي لِمِثْلِ هٰذِهِ اللُّؤْلُؤَةِ فِي مِثْلِ تِلْكَ ٱلظُّرُوفِ. فألْقَيْتُ بِاللُّؤْلُؤَةِ





وأَمْسَكْتُ بِالمَحارَةِ الأُخرى وفَتَحْتُهَا لَعَلِّي أجِدُ فِيها غِذَاءً فَمَا وَجَدْتُ إلاّ لُؤْلُؤَةً أُخْرَى أكْبَرَ حَجْماً مِنَ الأُولَى.

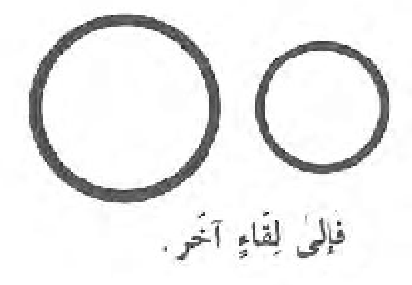
وهُنا تَحَرَّكَ فِي دَاخِلِي إحْسـاسُ التَّاجِرِ لِرُؤْيَةِ شَيْءٍ ثَمِينٍ. فَنَسِيتُ الجُوعَ وأخَذْتُ أُقَلِّبُ اللؤْلُؤَةَ فِي يَدِي ثُمَّ تَناوَلْتُ الأولى أيْضاً وأخَذْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي بِمَا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ ثَمَنُهُمَا لَوْ كُنْتُ فِي بَغْدَاد. ثُمَّ أخَذْتُ أضْحَكُ وأسْخَرُ مِنْ نَفْسِي وأقُولُ: «وأيْنَ أنَا مِنْ بَغْدَاد. إنَّنِي هُنَا حَبِيسٌ وَحْدِي فِي هٰذِهِ الجَزِيرَةِ الَّتِي لا سَبِيلَ إلَى الخُرُوجِ مِنْهَا أوِ العَيْشِ فيها». وجاءَتْ مَوْجَةٌ أُخْرَى فألْقَتْ إليَّ بِقوقَعَةٍ جَدِيدَةٍ ووَجَدْتُ بِدَاخِلِها لُؤْلُؤَةً ثَالِثَةً. ولَمْ أملكْ بَعْدَها إلاَّ أنْ أضَعَها دَاخِلَ سِرْوَالِي ولا أعْلَمُ مَاذَا أفْعَلُ بها. إنَّهُ شُعُورُ التَّاجِرِ وإحْسَاسُهُ بِكُلِّ مَا لَهُ قِيمَةٌ.

مَضَى النَّهارُ بِكامِلِه وأنا قَابعٌ فِي مَكَانِي لَمْ أُغادِرْهُ حَتَّى أوْشَكَتِ الشَّمْسُ عَلَى المَغِيبِ وانْحَسَر المَاءُ عَنِ الشَّاطِىءِ كَثِيراً بِفِعْلِ المَدِّ والجَزْرِ فإذا بِي أجِدُ على الشاطِىءِ مِئاتِ القَواقِعِ تَلْمَعُ فَوْقَ الرِّمَال. ولَمْ أسْتَطِعْ أنْ أُقاوِمَ الرَّغْبَةَ فِي نَفْسِي فأخَذْتُ أجْمَعُ هٰذِهِ القَوَاقِعَ وأضَعُها فِي مَكانٍ بَعِيدٍ عَنِ المَاءِ حَتَّى صارَتْ رَبْوَةً عالِيَةً وتَمَدَّدْتُ بِجِوارِها وأسْلَمْتُ نَفْسِي للنَّوْمِ حَتَّى صباحِ اليَوْمِ التَّالِي. ووجَدْتُنِي جَائعاً للغايَةِ فتَرَكْتُ مَكانِي وأمْسَكْتُ بِفَرْعِ الشَّجَرَةِ المُدَبَّبِ مِثْلِ الحَرْبَةِ والَّذي كُنْتُ صَنَعْتُهُ لِصَيْدِ الحَيوانَاتِ ودَخَلْتُ إلَى المَاءِ بَيْنَ الصُّخُورِ أُرَاقِبُ السَّمَكَ الَّذِي يَتَسَلَّل بَيْنَها. وبَعْدَ عِدَّة مُحاوَلاتٍ اسْتَطَعْتُ أنْ أصْطَادَ سَمَكَةً كَبِيرَةً جَعَلْتُ مِنْها غِذَاءَ يَوْمِي بَعْدَ أنْ تَرَكْتُها تَحْتَ حَرارَةِ الشَّمْسِ بَعْضَ الوَقْتِ فَصارَتْ شِبْه نَاضِجَة. وبَعْدَ أنْ مَلأْتُ مَعِدَتِي الخَاوِيَةَ جَلَسْتُ بِجَانِبِ تَلِّ القَوَاقِعِ وَجَعَلْتُ أفْتَحُها واحِدَةً بَعْدَ الأُخْرى. وكلَّما وجَدْتُ لُؤْلُؤَةً وَضَعْتُها مَعَ بَقِيَّةِ اللآلِىءِ الأُخرى. وقَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حَدَثَ نَفْسُ الشَّيءِ كَمَا فِي اليَوْمِ السَّابق. فَقَدْ طَرَحَتِ الأمْواجُ فَوْقَ الرِّمالِ مَجْمُوعةً أخرى مِنَ القَوَاقِعِ فَعلْتُ بِها نَفْسَ الشَّيْء.

وهكَذا مَرَّتْ أيّامٌ كَثيرَةٌ وشُهورٌ طويلةٌ وفي كُلِّ يَوْمٍ أجْمع ثَرْوَةً هائِلةً مِنَ اللُّؤْلُؤِ وأضَعُهُ في أكْياسٍ صَنَعْتُها مِنْ ألْيافِ الشَّجَر.

وفي ذَاتِ يومٍ بينَما أنَا جَالِسٌ عَلَى الشَّاطِىءِ أرْقُبُ البَحْرَ وأتَنَسَّمُ هَوَاءَهُ وأجْمَعُ القَواقِعَ وأسْتَخْرِجُ اللآلىءَ إذْ لاَحَ لِي شَبَحُ سَفِينَةٍ مِنْ بعيد. فَجَعَلْتُ أقْفِزُ فِي الهَوَاء وأصْرُخُ وأدعُو اللّهَ أنْ يَسْمَعُوني.

وقَدِ اسْتَجابَ اللّهُ لِدُعَائِي وشاهَدْتُ السفِينَةَ وقَدْ أخَذَتْ وجْهَتَها نَحْوِي. ومَا أنْ رَسَتِ السَّفِينَةُ، قُرْبَ الشَّاطِىءِ حتَّى أسْرَعْتُ إليها سِبَاحَةً والْتَفَطَني أهْلُها وَوَقَفُوا حَوْلِي يسألُونَنِي فِي دَهْشَةٍ عَنْ حَالِي وأنَا أُجِيبُهُمْ بكُلِّ الفَرَحِ والسَّعَادَةِ. وكانَ الرُّكَّابُ يَرْغَبُونَ فِي النُّزُولِ فَوْقَ الجَزِيرَةِ لٰكِنِّي أخْبَرْتُهُمْ بِمَا تَحْوِي مِنَ المَخَاطِرِ فَقَرَّرُوا عَدَمَ النُّزُولِ والرَّحِيلَ فَوْراً. ولٰكِنِّي أخْبَرْتُ قبطَانَ السَّفِينَةِ بأنَّ لِي حَاجيَاتٍ ثَمِينَةً عَلَى الشَّاطِىءِ وأوَدُّ أنْ أحْمِلَهَا مَعِي فاستجاب الرَّجُل لمطلبي وأرْسَلَ مَعِي اثْنَيْنِ مِنَ البَحَّارَةِ فِي قَارَبٍ كَبِيرٍ فَحَمَلْتُ كُلَّ كُنُوزِي مِنَ اللُّؤْلُؤِ وصَعِدْتُ عَلَى السَّفِينَةِ وأخْرَجْتُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ شَيْئاً كثيراً أعْطَيْتُهُ لِلقبطَانِ فَتَقَبَّلَهُ مِنِّي فَرِحاً شَاكِراً ورَحَلْتُ مَعَهُمْ مِنْ بَحْرٍ إلى بَحْرٍ ومِنْ جزِيرَةٍ إلى جَزِيرَةٍ حَتَّى صَادَفْتُ فِي إحْدَى المَوانِىءِ سَفِينَةً مُتَّجِهَةً إلى البَصْرَةِ. فَرَكِبْتُها وطَابَتْ لَنَا الرِّيحُ وشَمَلَتْنا عِنَايَةُ اللّهِ حَتَّى وَصَلْنا بَعْدَ عِدَّةِ شُهُورٍ إلى مَدِينَةِ البَصْرَة. ومِنْ هُنَاكَ جَمَعْتُ قَافلةً كبيرةً حَمَّلْتُها أحْمَالِي وأمْوالي واتَّجَهْتُ إلى مَدِينَةِ بَغْداد فَدَخَلْتُها بَعْد غَيْبَةٍ دامتْ عِدَّةَ سَنَوَات. وأقْبَلَ الأصْدِقَاءُ والتُّجَّارُ يُهَنِّئُونَنِي فأقَمْتُ الوَلاَئِمَ وأحْسَنْتُ إلى الفُقَرَاءِ وأكْرَمْتُ عُمَّالَ مَتْجَرِي وعُدْتُ إلى حَيَاةِ التَّرَفِ وَرَاحَةِ البَال.



فإلى لِقَاءٍ آخَر.

أسئلة حول الرحلة الثالثة

١	بمَ نُصِح «السندباد البحري» عندما بدأ يشعر بالملل؟ وهل اقتنع بذلك؟.
٢	ما الذي جرى بعدما تمّ تحديد موعد العرس؟.
٣	ماذا حلَّ به في الصحراء؟.
٤	إلى أين توجَّه السندباد ورفاقه؟.
٥	هل وُفق السندباد ورفاقه خلال تجوالهم بين البلاد؟.
٦	ماذا رأى السندباد ورفاقه في الجزيرة التي وصلوا إليها أخيراً؟ أين اختبأوا؟.
٧	هل المغارة التي اختبأوا فيها هي آمنة بالفعل؟ لماذا؟.
٨	ماذا فعل المارد عندما دخل إلى المغارة؟.
٩	ما هي الخطة التي اتفق السندباد ورفاقه على تنفيذها عند عودة المارد؟ هل نجحت؟.
١٠	هل تمكن الرفاق من الهرب دون خسائر؟ كيف؟.
١١	ما هي المشكلة التي واجهت الرفاق في البحر؟ إلى أين وصلوا أخيراً؟.
١٢	ما هو الخطأ الذي ارتكبه السندباد بصفته القبطان؟ وإلى ماذا أدى؟.
١٣	كم شخصاً بقي من الرفاق؟ لماذا؟.
١٤	ما هما الحيوانان اللذان تقاتلا على افتراس السندباد؟ وهل استفاد السندباد من ذلك؟ كيف؟.
١٥	علامَ عثَرَ السندباد عندما جَلَسَ على الشاطئ؟.
١٦	كيف استطاع السندباد الخروج من الجزيرة؟ وماذا حمل معه؟.

قاموس الألفاظ

أ

أدبر الليل: ولّى ـ مضى.
الإعياء: التعب الشديد.
ألهب: أشعل.

ت

التحامهما: اشتباكهما.

ج

جرداء: ناحلة لا نبات فيها.

خ

خفة: رشاقة وسرعة.

ر

راقهُ: أعجبه.

ز

الزئير: صوت الأسد.

ش

شَرار: ما يتطاير من النار.
شطراً من الليل: قِسْماً منه.

ع

العاتي: القوي الجبار القاسي القلب.

غ

الغُمّة: الحزن والكرب.

ق

قابع: منزوٍ ومستتر.

ل

لاحتْ: ظهرتْ من بعيد.

م

مهرولاً: مسرعاً.
المحتومة: المؤكدة.

و

وعول: مفردها وعْلٌ وهو تيس الجبل.
ولائم: مفردها وليمة وهي المأدبة.

ن

النحيب: البكاء الشديد.

هـ

الهودج: محمل يوضع على ظهر الجمل.

ي

يخلع: ينزع.
اليقين: العلم الثابت الصدق



رحلات السندباد

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت



ISBN 978-614-414 286 8